الفصل الثامن

العلم

- العلم في القرآن
- الكون والعلم
- الإله والإنسان والعلم

obeikandl.com

obeikandl.com

العـلـم في القرآن

التفسير القرآني ، كما رأينا ، هو التفسير الوحيد في تاريخ البشرية ومسيرتها الذي جمع بين الإله والكون والإنسان في منظومة متجانسة ، مفهومة في العقل مريحة للنفس ، تحدد دور كل مكون فيها ووضعه وحقيقته في نفسه ، ثم تحدد علاقته بغيره من مكونات المنظومة وأركانها ، في تناسق دقيق لا يطغى فيه ركن فيحتل مكان آخر ، ولا يختلط دور مكون بآخر ، فلا اختلاط ولا قلقلة ولا خلط ولا بلبلة .

فالمنظومة القرآنية هي الوحيدة التي لا يقف الإنسان أمامها موزع الأنحاء مشتت الجوانح متضارب القوى حائراً مشلول الإرادة .

ففي غير هذه المنظومة والتفسير الإلهي البسيط الذي هو التفسير الحق للوجود ، لا مفر للإنسان من أن يقف أمام عناصر الوجود المتقابلة يختار بينها ويرجح أحدها على غيرها وينحاز إلى هذا أو ذاك ، فإذا اختار الإله وجد نفسه مخاصما للكون والطبيعة التي يعيش فيها معرضًا عنها ، وإذا اختار الكون والطبيعة فسدت عقائده ووجد نفسه تلقائيًّا في معسكر أعداء الإله .

وهو نفسه بين هذا وذاك مشتت حائر منقسم موزع أشلاءً ، فالوجود الإلهي حقيقة في كينونة الإنسان وماهيته ، ولا تستقيم حياته دون الإيقان بها ، والكون والطبيعة هو عالمه الذي يجد نفسه فيه منذ يخرج من رحم أمه ، ولا بد له أن يتلمسه ويعيش فيه ويتفاعل معه وإلا كان حيًّا ميتًا .

كانت الحضارة الإسلامية القرآنية إذًا هي نقل الإنسان من العماء ومسيرة التيه إلى الرشد ومسيرة النور ، هى هدايته وإرشاده إلى هذه المنظومة التفسيرية الفريدة المحكمة المتناسقة الجميلة التي يجمع الإنسان فيها وبها بين الإيمان بالله عز وجل والإيقان بطلاقة قدرته وبين سعيه ووجوده وعمله وعلمه بالكون والطبيعة التي يعيش فيها .

وبهذه المنظومة الحق والحقيقة أصبح الإنسان رابط الجأش قرير العين مطمئن النفس مستقر العقل ، يعلم حقيقته هو ، وحقيقة الألوهية ، وحقيقة الكون الذي يعيش فيه ، وما الذي يربط بينه وبينهم ، وموضعه منهم وموضع كل منهما منه ومن الآخر .

فيفرغ الإنسان بعد أن فهم وعرف واستقرت المسائل الكبرى أمامه وامتلك خريطة الوجود ومنارًا يهديه في حياته ، يفرغ لمسيرته ومهمته التي وجد من أجلها وجاء إلى الأرض شريفًا عزيزًا طاهرًا بريئًا ، ومهمته هي الخلافة العبادة والعبادة الخلافة .

حتى إذا أذن الله عز وجل بطي الدنيا وإنهاء المهمة واستدعاء الإنسان ، آب إلى ربه لتكون المساءلة والحساب على ما فعل في مهمته والجزاء الأوفى على ما أنجزه منها ، أو ما قصر فيه ، أو ما فرط وضيع .

يبقى في المنظومة القرآنية بعد قاعدتها وأساسها ، الألوهية والتوحيد ، وبعد أركانها وبنائها ، الإنسان والكون وعلاقتها معًا بالألوهية ، يبقى ملاط المنظومة ، وهو العلم .

* * *

الكون والعلم

الشائع حين يذكر القرآن إلى جوار العلم المختص بالكون والطبيعة والمخلوقات أن يقفز إلى الأذهان الإعجاز العلمي ، أي المعلومات التي أتى بها القرآن عن الكون والطبيعة أو عن الإنسان والمخلوقات ، وسبق بها مسيرة العلم ، ليؤكد ارتفاعه وإطلاقه عن الزمان وهيمنته على المعرفة الإنسانية ، ولتكون هذه الحقائق العلمية في كل عصر دليل صدق الوحي وبقاء المعجزة وخلودها .

وهذا كله صحيح طبعًا ، إلا أن للقرآن فضلاً آخر غير هذا الفضل السلبي ، فالمعلومات والحقائق العلمية في القرآن معلومات ساكنة لا أثر لها في مسيرة العلم وتطوره ، فقط هي موجودة في القرآن وتنتظر وصول علم البشر وعقلهم إليها لتتطابق الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية العلمية ، فتكون هذه تصديقًا لتلك وبرهانًا على أن هذا القرآن ما كان ليتقوله ولا ليأتي به رجل أمي في بيداء قفر منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان .

بيد أن للقرآن فضلاً إيجابيًا ، وأثرًا حاسمًا فعالاً في دفع مسيرة العلم المتصل بالكون والطبيعة والخلق ، وتحويل مجراه وانتزاعه من وهدته وعثرته ، وهو فضل وأثر ينفرد به القرآن ولا يشاركه فيه شيء آخر في تاريخ الإنسانية ومسيرة العلم .

وهذا الفضل والأثر هو الذي به القرآن ليس مجرد كتاب يحتوي معلومات وحقائق علمية سبق بها عصر نزوله ، بل كان به ويكون طاقة دفع فعالة ووصلة تحويل هائلة غير مسبوقة لمجرى العلم الطبيعي الكوني .

ونقول : وأيضًا غير ملحوقة ، ولا يوجد لها شبيه في تاريخ الإنسانية ولا في تاريخ العلم كله وحتى لحظتنا هذه ، لأنه ما من نقلة في تاريخ العلم

الطبيعي حدثت بالكيفية ولا السرعة والطريقة الانفجارية التي أحدث بها القرآن هذه القفزة الهائلة في مسيرة العلم ، وما من إنسان ولا مجتمع ولا كتاب ولا حضارة استطاعت تصحيح معنى العلم حين يتصل بالكون والطبيعة والمخلوقات في نقلة واحدة ومرة واحدة كما فعل القرآن .

وكل ما حدث من ارتقاء في مسيرة العلم بعد هذه النقلة ، هي أصله وتربته ، وهي ماؤه وغذاؤه وشمسه وهواؤه .

نعم قد تكون منجزات العلم الغربي كبيرة ضخمة ، ولكنها متوالدة يخرج بعضها من بعض ، وما كان لها أن توجد أصلاً ، لا في العالم الغربى ولا في العالم الإسلامى قبله ، إلا بهذه النقلة التصحيحية الكيفية التي أحدثها القرآن في العلم ، فصوب بها مساره ودفعه بها .

وحين نقول إن القرآن دفع مسيرة العلم وارتقى بها ربما يظن البعض أن ما نقصده هو رفع المنهج القرآني لمكانة العلم ومنزلة العلماء بخلاف ما كان قبله من ازدراء له وإزراء بأهله .

ونقول : لا ، ليس هذا ما نقصده .

وما نقصده هو فضل حقيقي للمنهج القرآني في دفع مسيرة العلم نفسه كعلم ، وفي تطوير حاسم لمفهومه ، وفي تحويل فعال لمجراه ، وإيجاد معنى للعلم حين يتصل بالكون والطبيعة لم يكن موجودًا قبله ولا سمع به أحد في العالمين ولا عرفه إلا من خلال هذا المنهج القرآني ، أو من خلال الاحتكاك بأهله وهم يطبقونه تلقائيًا دون أن يدركوا أي نقلة ووثبة جبارة أحدثها القرآن بمنهجه ومن خلالهم في مسيرة العلم ومعناه ومفهومه .

يستوقفنا البعض قائلاً : إنك تكاد تجعل القرآن نظرية علمية ، فها قد عدنا إلى كبت العلم بالنصوص .

ونقول : أما عن النظرية العلمية فلا ، لا يقدم القرآن نظرية علمية لأن هذه ليست مهمته ، بل هى مهمة حدد القرآن المسؤول عنها وخصه بها ، وهو

الإنسان ، ولكن ما جاء به القرآن هو تفسير جديد لمعنى العلم ومفهومه ، ما كان ليتركه وقد جاء ليصحح الأوضاع الخاطئة في أذهان البشر قبله وبعده ويعيد تفسير الحقائق الكبرى ويضعها في صورتها الحقيقية .

ولكي يعيد القرآن تفسير الوجود ويصححه أمام الإنسان ، ولكي يوجد المنظومة المتناسقة وتكون فعالة في الإنسان المستخلف ، كان لابد من إعادة تعريف العلم وتحويل مجراه وإنشاء مفهوم جديد له غفلت عنه البشرية قبله ، حتى يتمكن الإنسان من العلم بما حوله والانتفاع به وإنجاز مهمته .

وأما عن كبت العلم بالنصوص ، فنقول أيضًا : لا ، لأن التعريف الذي جاء به القرآن للعلم والمعنى الذي أنشأه له ليس تدخلاً في العلم أو نتائجه ولا وضع قوالب حديدية له ، بل على العكس هو تدخل لتحرير الإنسان حين يتعامل مع العلم بالكون والطبيعة ، ولتوجيهه إلى المعنى الصحيح له ، مع حثه عليه حتى لا تكون كل أفعاله سدى ، ولكي لا يكون علمه محصورًا في نطاق ضيق وفي غير الطريق التي يجب له أن يكون فيها .

إذًا نقول : لا كبت للعلم بالنصوص ، لأن المعنى الجديد والتعريف والتوجيه الذي جاء به القرآن للعلم ما كان إلا توسيع مفهومه لا تضييقه ، وإخراجه من القالب الذي كان موضوعًا فيه قبله إلى آفاق أرحب تستوعب كل طاقات الإنسان ووسائل معرفته .

ونبدأ من ما قبل التصحيح القرآني لكي ندركه حق قدره ، والبداية من المسيحية لأنها حسمت مسألة العلم من جذورها ، فالمعرفة خطيئة اقترفها المجرم الأول الذي أدى إلى نكبة البشرية بنزولها إلى الأرض وفتح عيونها على الكون ، وكل من يحاول أن يعرف شيئًا غير ما لقن له فهو مذنب يعيد فتح صندوق الشر ويكرر الخطيئة .

ولذلك : **«اختار الله جهال العالم ليكونوا حكماء»**[1] **!**

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : (١) .

وأصبحت : «**حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله**»[١]

وانعكس ذلك على الغرب المسيحي كله وعلى كل ما وقع تحت سيطرته ، والذى ظل ما يربو على الألف عام لا يرى إلا أن : «**العقيدة وحدها هي مصدر الفهم والمعرفة**»[٢]

ونزيد نحن : العقيدة الملفقة والنص المهتز القلق ، كما بينا ، الفاقد للمصداقية والعصمة ، كما سنبين .

ولما كانت التقاليد عند النصارى هي : «**ما اتصل بهم من العقائد أو أمور العبادة خلفًا عن سلف مما أوحى الله به للكنيسة دون أن يسطر في الكتاب المقدس**»[٣]

يمكننا أن نعدل عبارة جاك بيرك لتكون : «**أصبحت أقوال البابوات والقديسين وتعاليم الكنيسة هي مصدر الفهم والمعرفة وحدها**» .

إذًا انتهت المسيحية إلى أن العلم هو أقوال البابوات وتعاليم الكنيسة ، وكل علم سواها هو باطل .

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي : «**أينما وضعت المسيحية قدمها ، في الإسكندرية وبيزنطة ، في اليونان وروما ، في فرنسا وإيطاليا ، أدت إلى تقلص مروع في الثقافة**»[٤].

إذًا العلم في المسيحية هو العقيدة المستمدة من تعاليم الكنيسة والنصوص المختارة من الكتاب المقدس بواسطة الكنيسة ، ويحرم على المؤمنين قراءة غيرها من النصوص حتى لو كانت فقرات من التوراة أو الأناجيل غير ما اختارته الكنيسة !!

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : (٤) .
(٢) عندما تغير العالم ، ص٢٨ .
(٣) المنجد الأبجدي ، ص٢٧ .
(٤) العقيدة والمعرفة ، ص٢٣ .

وما زال هذا هو الموقف في الكنيسة الغربية حتى الآن ، أو على الأقل ما زال هو الموقف الرسمي المعتمد !

ونترك الغرب المسيحي الذي حُسم فيه أمر العلم وانحصر في نصوص محدودة من داخل النص التوراتى الإنجيلي وأقوال البابوات وتعاليم الكنيسة إلى الإغريق والرومان .

استقر الإغريق مع الكون على أنه مجزء مقسم ، وأن الجزء الذي يعيش فيه الإنسان ظل للحقيقة وهو باطل وخداع ، أو أنه غير موجود أصلاً ، واستقرت المادة في صورتها الإغريقية على أنها خسيسة دنيئة ، وكلما اقترب الموجود من المادة والتشيؤ زاد خسة ، وكلما تركها وابتعد عنها واقترب من الأفكار المجردة ازداد كمالاً ورقيًّا وسموًّا .

وانعكس هذا التصور على معنى العلم عند الإغريق ، فكلما اقترب العلم من المادة أو الطبيعة قلت قيمته وأصبح دنيئًا وضيعًا ، وكلما ابتعد عنها ازداد شرفًا حتى يصل إلى ذروته حين يصبح مجرد فكرة عقلية لا علاقة لها بالمادة .

لذلك كان المثل الأعلى للعالم عند الإغريق هو : «**المفكر النظري الذي يستخلص الحقائق كلها بالتأمل النظري ، أما محاولات تدعيم هذه الحقائق بمشاهدات أو ملاحظات أو تجارب فكانت في نظرهم خارجة عن العلم ، بل إنها تحط من قدر العلم وتجعله مجرد ظن أو تخمين**»[1].

فالعلم عند الإغريق ، والرومان من بعدهم ، هو التأمل العقلي المحض في الصورة المجردة للأشياء ، أو هو التفكير في الأفكار .

وأمر آخر ، هو أن احتقار الإغريق للمادة وصل بهم إلى أن اعتبروا : «**العلم لا مجال له بالتطبيق ولا علاقة له بالعالم المادي بأكمله**»[2].

---

(١) دكتور فؤاد زكريا : التفكير العلمى ، ص١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٣٩ .

فالاستعمال التطبيقي للمعرفة هو : «**حط من شأن الفكر وتدنيس المثل العليا لرؤية الأفكار الصادقة**»[1].

فإذا كانت المسيحية أينما حلت أدت إلى تقلص مروع في العلم والثقافة ، فإن : «**أسلوب الحياة في معظم شعوب البلاد المتحضرة كان عند سقوط الإمبراطورية الرومانية مماثلاً إلى حد كبير لما كان عليه قبل ذلك بألفي سنة ، لأن العلم اليوناني كان مرتبطًا بالمظاهر أكثر مما كان مرتبطًا بالحقائق كما يقول العالم الإنجليزي لويس برنال**»[2].

فالإغريق والرومان تركوا العالم دون أن يحدثوا فيه أثرًا على مستوى العلم والتطبيق ، وإذًا انتهى العلم عند الإغريق إلى أنه التأمل العقلي النظري المعزول عن الكون والمادة غير القابل للتطبيق ، لأن تطبيقه حط من كرامة العالم وهبوط بمعنى العلم .

ويمكن أن ندرك مدى عقم هذا الفهم لمعنى العلم فى التعامل مع الحقائق الطبيعية إذا علمنا أن أرسطو جزم بأن عدد أسنان فك المرأة أقل من عدد أسنان فك الرجل دون أن يرد على ذهنه أن يقوم من مكانه ليعد هذه وتلك ليعرف الصواب ، لأن مجرد قيامه وتأكده ببصره حط من فكره وهبوط بعلمه ، ونوشك أن نقول : حتى لو قام وعدها لما زحزح هذا من نتيجته التي استنتجها لأن العالم المادي عنده باطل وخداع ، وما في ذهنه هو المجرد ، ولذا هو وحده الحقيقة المصفاة !

فإذا كانت المسيحية ترفض العلم من البداية ، والإغريق والرومان لم يفهموا من العلم إلا أنه الجلوس في غرفة أو تحت ظل شجرة وتصور كل شيء كيف هو ، وكيف يكون ، وما هي صفاته ، ولماذا هو هكذا ، واعتبار أن ما يصلون إليه بهذا التأمل هو الحقيقة ، إذا كانت هي حالة العلم ، وظلت هذه هي حالته

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٠٧ .

(٢) أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ص١٣٠ .

لآلاف السنين لا تتقدم على الصعيد الحقيقى خطوة واحدة ، إذًا فليقل لنا أحد إجابة معقولة تفسر لنا كيف ولماذا حدثت هذه الوثبة الهائلة في العلم مرة واحدة ، والتي عجلت مسيرته بسرعة تفوق سرعة المعجل الذري إذا قيست بخطوات سير العلم قبلها .

أي قوة خارقة تلك التي تدخلت في مسيرة العلم وانتزعته من الوهدة الموحلة التي كان يتعثر فيها إلى الطريق المعبد الممهد لينطلق بأقصى سرعته؟

هل هذا التطور المفاجئ المتسارع في مسيرة العلم بطريقة تخالف كل سيرة له قبل ذلك صدفة ، هل هي اجتهاد بشري محض ، فلو كان ، لم ظهر فقط في هذه المرحلة من تاريخ العالم ، هل من المقبول أو من المفهوم في ميزان العقل الرشيد أن تظل البشرية نائمة هائمة تسير في غير الطريق ولا تتقدم خطوة واحدة ثم فجأة تثور هذه الثورة ، ما الذي حدث فغير مسيرة البشر وصحح فهمهم لمعنى العلم؟

هذه أسئلة تحتاج إلى إجابة وإلى تفسير معقول لها .

الغربيون والمستغربون من ذيولهم يقولون : إن العلم أصبح له معنى جديد بعد أن اكتشف فرنسيس بيكون المنهج التجريبي في كتابه : الأداة الجديدة Novum Organum ، أما لماذا كان بيكون وحده هو الذي اكتشف هذا المنهج مخالفًا البشرية كلها ، وكيف اكتشفه ، ومن أين أتى به إذا لم يكن قد سمع به من قبل ، فلا يقول لنا أحد .

أطرف إجابة لتفسير معرفة بيكون واكتشافه للمنهج التجريبي هي أنه تخيل أو حلم بالمنهج التجريبي ثم قام بوصف تخيله وحلمه في كتابه : أطلنطس الجديدة التي يصف فيها وصوله إلى جزيرة مجهولة رأى فيها العلم يقوم على التجربة لا على الورق والكتابة ثم تطبيق التجارب على الحياة[1]!

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود : عندما يحلم العقلاء، مقال ضمن كتاب نافذة على فلسفة العصر .

فبيكون نام في ظل شجرة وهزه الهواء العليل ، فحلم في نومته بالمنهج التجريبي ، حلمك يا شيخ بيكون!!

أما ول ديورانت فإنه يقفز في قصته للفلسفة ، التي يتناول فيها مسيرة الفلسفة والعلم والأخلاق والعقائد ، والتي لم يذكر فيها عربيًّا واحدًا ولا فكرة إسلامية واحدة ، ديورانت قفز من أرسطو إلى بيكون مباشرة ووضع سيرته تحت عنوان : النهضة العلمية .

هل هذه قفزة طبيعية ، هل هي مفهومة ، هل هكذا يفسر تقدم العلم ويدعى أنه علم ؟

مات أرسطو فتوقفت البشرية ، وبعد آلاف السنين غير المكتوبة قام أرسطو الجديد من نومه وقد هبط عليه الوحي فجأة بمنهج لم يسمع عنه هو ولا آباؤه ولا أجداده إلى أسفل سافلين !!

أم تراه عرفه بمعجزات البابوات والقديسين ، إذًا لحُق له أن ينصب البابا الأوحد في تاريخ العلم ، كيف لا وقد نام ثم قام فصحح مفهوم العلم كله وأعاد تعريفه وتفسيره في حلم واحد؟!

من أين أتى بيكون بمنهجه ورؤيته ؟

ها هنا نستعين بوصلة لنصل إلى ما نريده .

« تداولت الأيدي في أكسفورد مصنوعات العرب التي كان الناس في المدينة التجارية على صلة دقيقة يدويًّا معها . . . ولقد سقطت حوافز البصريات العربية وآثار أستاذ البصريات الأكبر الحسن بن الهيثم على أرض مواتية وعلى الرغبة في فكر علمي تجريبي عار عن الأيدلوجيات كانت تتلقاه على يد مستشارها الأكبر »[1].

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٧٤ ، ١٧٥ .

ومستشارها الأكبر هذا هو روجر بيكون السابق على سميه فرنسيس بيكون بثلاثة قرون ، وإذًا فلم يكن المنهج التجريبي وحيًا هبط على فرنسيس بيكون ، بابا العلم عند ديورانت والشيخ علام عند زكي نجيب محمود .

«وبالآلات المتعددة التي تخصه والتي أحضرها بيكون معه من إيطاليا وأعدها بنفسه ، أجرى تجارب استنزفت كل ثروته ، وبها اقتفى أثر قدوته العرب الذين كانوا يتمتعون بتقدير كبير في أوكسفورد»[1].

الحمد لله ! وجدنا من ينصفنا ويقول الحقيقة ويرد على الغربيين والمستغربين ، الذين لا يكفيهم تجاهل العرب المسلمين وعدم ذكر فضلهم على مسيرة العلم ضنًّا بأنفسهم أن يكون الشيء الوحيد الذي أنجزوا فيه وبه اكتشفوا التلفيق والتزوير وصار محور فكرهم وفهمهم للوجود ورؤيتهم له مستعارًا ، وممن؟! من العرب المسلمين ، لا يكفيهم التجاهل وإنما يحرص بعضهم على أن ينفي في صراحة ، هي في حقيقتها وقاحة ، كل أثر للمسلمين على المناهج العلمية ويمحو فضلهم الذي به ولدت العلوم التجريبية .

فهذا فرانز روزنتال جعل كل ما قدمه العرب والمسلمون للعالم في مناهج البحث هو فقط ما يتصل بالورق والكتب والغرف المغلقة ، كالتدوين والتوثيق والنقد ومقارنة المخطوطات[2].

أما المنهج التجريبي ، فلا ، إذ كيف يكون الشيء الوحيد الذي أفلح فيه الغرب قادمًا من الشرق ؟

«أخذت كلمة تجربة أثناء العصور المتوسطة في أوروبا تحتل تدريجيًّا في الأوساط العلمية مقامًا خطيرًا وأهمية كبرى ، أما في الحضارة الإسلامية فإننا لا نلاحظ اتجاهًا في هذا السبيل ، ويمكننا أن نقول إن

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص ١٧٦ .

(٢) فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص ١٧٥ .

الحضارة الإسلامية كانت تسير على هدى ما جاء في شعر بشار حيث يقول :

عميت جنينًا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدًا بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

أي استخدام البصيرة في وصف الموجودات حولنا لأن البصيرة تفضل البصر في إدراكها للأشياء»[1].

وقد كفتنا زيجريد هونكه الرد عليه وعلى أمثاله من الدجاجلة ، فلا يبقى إلا أن نقول : حقا ، رمتنى بدائها وانسلت !!

إذًا العلم الذي يتعامل مع الكون والطبيعة ، ولا وسيلة لفهمها إلا به ، جاء به الغرب من العرب .

ها قد اقتربنا خطوة ، إذ ليس هذا هو مقصدنا ولا هو ما نسعى إليه ، مقصدنا الحقيقي الذي نسعى إليه هو الخطوة السابقة على هذه .

من أين أتى العرب بهذا المنهج ، كيف توصلوا إليه وهم الأميون الضاربون بأميتهم في القدم ، أي معجزة خارقة تلك التي جعلت بدو القفار يأتون بمعنى للعلم وفهم له ومنهج جديد فيه لم تدركه العوالم الرافلة في حلل المدنية والزخرف قبلهم لآلاف السنين؟

هذا هو السؤال ، كيف : «**عرف العرب أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، الحقيقة التي جهلها علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها**»[2]**؟**

المعجزة الخارقة والقوة الخارجة عن طاقة البشرية التي أعادت تفسير معنى العلم حين يتصل بالطبيعة والكون ، ووضعت له معنى ومفهومًا لم يكن معروفًا عند البشر قبلها ، فصححت بذلك مسيرة العلم الكوني الطبيعي إلى

---

(١) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص١٧٨ .
(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص٤٣٥ .

مساره الذي يلائمه ويكون فعالاً فيه ، هذه المعجزة الخارقة هي المنهج القرآني الذي ما كان العرب أن يعرفوا شيئًا عن العلم إلا به ومنه .

العلم في الغرب المسيحى كان خطيئة فتحت على البشرية صندوق الشرور ، فجاء المنهج القرآني ليعيد تصحيح صورة العلم والمعرفة ، فالمعرفة ليست خطيئة ولا شرًا ، بل هي رفعة في الدرجات .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة:١١).

والعلم هو ميزان التفاضل والتقويم .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩).

ثم ماذا بعد ؟

هذا العلم إذا اتصل بالكون والطبيعة ، فلا معنى له ولا وسيلة إليه إلا النظر والبصر واستخدام الحواس في التعرف على الكون والعلم به والتعامل معه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨).

ولأول مرة في تاريخ البشرية يجيء منهج غير مسبوق ولا مثيل له قبله ، يجعل العلم في الرؤية البصرية الحسية ورصد الثمرات والجبال والمخلوقات ، ويجعل الألوان موضوعًا للعلم ، وبنص صريح .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨).

وماذا أيضًا ؟

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١).

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾ (الأنعام:١١).

﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩٩).

هذه ليست مجرد أوامر ولا حض على العلم فقط ، بل هي آيات فيها مفهوم جديد للعلم ، وإدخال لتعريف لم يكن له ولا كان موجوداً على ظهر الأرض قط قبل القرآن .

فالنظر علم ، والسير والحركة علم ، واستخدام الحواس في فهم الكون والطبيعة ومعرفتهما علم .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت:٥٣).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠).

الكون كله ، سماءً وأرضًا وحيوانات ونباتات ، أصبح موضوعًا للعلم ، ومشاهدة الطبيعة ومتابعتها ومراقبتها ورصدها علم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥).

وأصبحت الشمس والقمر والأفلاك والنجوم موضوعًا للعلم ، والتبصر بها وبحركتها هو العلم ، وهو العلم الذي لابد منه لمعرفة الحساب ، الحساب الذي لم يفهم منه العالم قبل القرآن سوى أنه وسيلة للهو والتسلية ، ولا تزال كلمة حساب الغربية Arithmatic شاهداً ، فمعناها الأصلي عند الإغريق هو التسلية واللعب بالأعداد .

هذه هي القفزة الهائلة الثانية التي أطاح فيها القرآن بالمعنى السلبي للعلم ، فلم يعد مجرد فكرة ولا تأمل حالم في غرفة مغلقة ، بل صار الكون المفتوح هو ميدان العلم ، والحواس والمراقبة والمتابعة والاختبار الفعلي للحقائق هو العلم .

هذه القفزة المنهجية لم يأت بها الغرب ولم يأت بها العرب ، ولم يقف أحد ليسأل نفسه : كيف أتى بها هؤلاء أو أولئك ، وإذا كان قد أتى بها فلماذا ، هل في مفهوم العلم أن يهبط العلم بمنهجه كاملاً متكاملاً على بشر ليقوم فيرى الكون غير الكون والإنسان غير الإنسان والعلم غير العلم ووسائله غير وسائله؟

أما النقلة الثالثة التي نقلها القرآن للعلم ودفعه بها وصحح معناه ، فهو أن العلم ليس مجرد نتائج نظرية يتوصل إليها الإنسان وفقط ، وإنما العلم تطبيق واستغلال له في تحقيق المهمة التي وكلت إلى الإنسان فى الوجود وتسخير له في مسيرة البشرية .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤) .

فأصبح العلم بالبحر وتسخيره لا للمشاهدة أو الاعتبار فقط ، ولكن لتطبيق العلم عليه واستخراج كنوزه وطعامه والانتفاع بها ومعرفة أمواجه وتياراته ورياحه لضبط مسيرة الفلك فيه .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (الإسراء:١٢).

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد:٢٥).

هذه كلها آيات تدعو إلى تحويل العلم والمعرفة إلى أداة فعالة في مسيرة الحياة ، وتطبيقه للانتفاع بنتائجه ، واستخدام البشرية له في حاجاتها وأغراضها ومنافعها وبناء قوتها ، بل وفيها دعوة إلى استخدام العلم في إنتاج العلم .

ولأول مرة فى تاريخ البشرية يأتي منهج يجعل تطبيق العلم جزءًا منه ، ويجعل تطبيق العلم وسيلة للوصول إلى العلم ، وينبه إلى الصلة بين الكون والحساب أو القانون الرياضي .

لهذا ، ولهذا فقط ، اختلف العرب المسلمون عن كل الأمم التي سبقتهم ، فأصبح العلم عندهم : «**يهدف إلى فهم أسرار العالم الطبيعي وتمكين الإنسان من السيطرة عليه . . . كان المسلمون بارعين في استخدام الأرقام ووضع أسس علم الحساب الذي يمكن تطبيقه في حياة الناس اليومية ، وكان اختراعهم للجبر والهندسة التحليلية وابتكارهم لحساب المثلثات إيذانًا لعصر جديد تستخدم فيه الرياضة للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي وتطبق فيه مبادؤها من أجل حل مشكلات المساحة الأرضية وحساب المواقيت وصناعة الأجهزة الآلية ، أما بحوثهم الطبية والصيدلانية فكانت ذات دلالة تطبيقية لا تخطئها العين**»[1].

إذًا تصحيح معنى العلم ومفهومه حين يتصل بالكون والطبيعة والخلق ، والوصلة التغييرية التحويلية الحاسمة لمجرى العلم التي نقلته من مسيرة الأوحال المتعثرة إلى الطريق المعبد الممهد الذي يمكن للبشرية أن تنطلق فيه وتنتفع به كان أثرًا قرآنيًّا خالصًا .

فما كان للغرب أن يدرك حقيقة الكون ومعنى العلم حين يتصل به لولا اتصاله بالعرب وإقامة جامعاته ومراكز أبحاثه على مقربة من العالم الإسلامي وإرسال بعثاته إليه ليقتبس منه ، والعرب ما عرفوا هذا المنهج ، وما كان لهم من طريق آخر يعرفونه به ، سوى من القرآن وتصحيحه لحقيقة الكون ، وإرشاده لهم إلى منهج العلم الصحيح حين يتصل بالكون والطبيعة .

ولولا هذا التصحيح القرآني الجذري وأثره الحاسم في تحويل مجرى العلم الطبيعي لبقيت البشرية مكانها لا تقدم ولا تؤخر ، كما كانت قبل نزول القرآن ولآلاف السنين بشهادة لويس برنال ، ولظلت على وقفتها لا ترى في الكون إلا وهمًا مضطربًا مبعثرًا ترتبه بأفكارها المجردة من داخل غرفة مغلقة ، وإذًا لما كان ثمة علم طبيعي ولا كوني ولا تقنية ، لا في الشرق ولا في الغرب .

---

(١) التفكير العلمي ، ص ١٥٢ .

إذًا

يجب تصحيح الصيغة الاعتذارية الدفاعية التي يتحدث ويكتب بها من يتحدثون ويكتبون عن علاقة القرآن بالعلم الطبيعي وموقفه منه من أمثال : الإسلام لا يصادم العلم . . . القرآن يشجع العلماء . . . الله عز وجل جعل العلم الطبيعي هو العلم .

يجب تصحيح ذلك كله ليقال : إن العلم الطبيعي ما كان له أن يولد أو يكون إلا بالقرآن ، فهذا العلم ، ومنهجه ، وما يبحث فيه ، وموضوعه ، كلها نتاج خالص للتصحيح القرآني لحقائق الكون ومعنى العلم المتصل به ومنهجه ووسائله .

ما كان للعلم الطبيعي أن يولد ولا أن يكون إلا بالقرآن ، وما كان للبشرية أن تعرفه ولا أن تصل إليه إلا ببيان من الإله .

* * *

obeikandl.com

الإله والإنسان والعلم

القرآن هو الذي صحح إذًا مسيرة العلم وغير مجراه إلى حيث يجب أن يكون وإلى حيث يكون العلم فعالاً مثمرًا ، فانتزع البشرية بذلك مما كانت فيه إلى ما صارت إليه .

فلماذا صحح الله عز وجل مسيرة العلم ، لماذا لم يترك البشرية كما هي تخوض في أوحال تتعثر فيها ولا تتقدم ، لماذا حرص القرآن على أن يصحح للإنسان معنى العلم وعلى أن يدفعه إليه ويدله عليه؟

هذا السؤال يعود بنا إلى سؤال قبله هو أصله ، من أين جاء الإنسان بالعلم ، لماذا الإنسان وحده دون باقي المخلوقات هو الذي يتصف بصفة العلم والتطلع للمعرفة؟

في رواية التوراة أن الإنسان جاء بالعلم والمعرفة من الجنة ، لكنه جاء بها سرقة من الإله دون علمه ولا رضاه ولا إرادته ، بل على خلافها ، فخرج الإنسان إلى الأرض بالعلم والمعرفة التي أكل من شجرتها ، وأصبح لزامًا عليه ليكفر عن خطيئته الموروثة ولا يكررها ولكي يكون في صف الإله أن يتنازل عن العلم والمعرفة .

فالعلم صفة الإله وحده أو من ينوب عنه ، وعلاقة الإنسان بأي معرفة غير تعاليم الكنيسة ينبغي أن تكون النفور منها والإعراض عنها ، والإعراض عن المعرفة يتبعه الإعراض عن الكون والطبيعة ، فانتهى الإنسان في ظلال التلفيق التوراتي والعالم الذي أقيم عليه إلى أن يكون في صف الإله ضد الكون والمعرفة .

وحين افتضح التلفيق انقلب الوضع ، فصار الإنسان والكون والعلم معًا في مواجهة الإله ولم يستطع الغرب ، لا في ظلال التلفيق وعالمه ، ولا بعد افتضاحه الجمع بين الإله والإنسان والعلم في صعيد واحد .

إذًا ماذا قدم القرآن للبشرية في مسألة : الإله والإنسان والعلم ، وما النقلة التي نقلها للبشرية فيها؟

الله عز وجل في القرآن خلق الإنسان وجعله خليفته فى أرضه ، وعندما خلقه منحه هو سبحانه العلم والمعرفة والقدرة عليها .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١).

فالله عز وجل هو الذي منح الإنسان العلم ، ووهبه له هبة مباشرة .

والأسماء التي علمها عز وجل لآدم هي : «**أسماء خلقه ، وسمى كل شىء باسمه ، وأنحى منفعة كل شىء إلى جنسه ، والمعنى علمه الأجناس وعرفه منافعها**».

أي العلم بالكون والطبيعة التي خلق ليكون خليفة فيها ، والعلم بالمخلوقات كلها التي هو مستخلف عليها ، والعلم بنفسه وما أودع فيه .

ولذلك كان العلم في هذه الآية هبة من الله عز وجل لآدم وحده ولم يعلمه عز وجل الملائكة ، لأن معرفة الكون والمخلوقات والتعرف عليها ليس مهمة الملائكة ، ولا هذا النوع من العلم يختص بهم .

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة:٣١،٣٢) .

إذًا فأول جزئية في التصحيح القرآني هي أن العلم والمعرفة بالكون والطبيعة والخلائق هو علم ينفرد به الإنسان ولا يشاركه فيه أحد من مخلوقات الله عز وجل ولا حتى الملائكة ، فهو علم يختص به وحده .

والجزئية الثانية هي أن هذا العلم موهوب لآدم ممنوح له من الله عز وجل ولم يحزه بنفسه ولا في غفلة من الإله ، بل هو قد عُلِّمه ، بضم العين ، في الملأ الأعلى ، والله عز وجل قد منحه هذا العلم وأراده له من أول خلقه ، بل قبل أن

يخلقه ، فالملائكة حين توقفت مستفهمة عن هذا المخلوق كيف يخلق ليفسد في الأرض ، كان جواب الله عز وجل لهم :

﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠)

ثم كانت الآية التالية لها :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٣١)

فتعليم آدم ومنحه العلم والمعرفة هو ما علمه الله عز وجل ولم تعلمه الملائكة ، وهو جزء من الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان ، وهو إذًا مراد من الله عز وجل للإنسان ، ممنوح وموهوب له من قبل أن يخلق ويوجد .

يبقى سؤال : هذا العلم الممنوح الموهوب للإنسان وحده من الله عز وجل ، المنفرد به دون باقي الخلائق ، ما موقعه من الإنسان وما هو مكانه من تكوينه وماهيته؟

أين يقع العلم والمعرفة من تكوين الإنسان وكم يستغرق منه؟

هنا تجيبنا آيات سورة الرحمن .

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

(الرحمن:١-٤)

الآيات تقرر أن الله عز وجل خلق الإنسان وأنه عز وجل الذي علمه البيان ، لكن الآيات بها شيء يحتاج إلى تفسير ، فالآيات لا تفصل بين خلق الإنسان وبين تعليمه البيان ، فلم يقل عز وجل : خلق الإنسان وعلمه البيان ، أو ثم علمه البيان ، بل قال عز وجل :

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٣،٤)

فلا فاصل بين الخلق والتعليم ، لا كبير ولا صغير ، ولا هما شيئان منفصلان ، الخلق وحده والبيان وحده ، فتعليم البيان هو جزء من خلق الإنسان ، والإنسان ما كان ولا خُلِق إنسانًا إلا بتعليمه البيان .

إذًا البيان الذي علمه الله عز وجل الإنسان هو مكون من مكوناته وجزء من ماهيته لا يستطيع الانفصال عنه ، وهو أصل فيه جُبِل عليه .

وهذه حقيقة أخرى يصححها القرآن ، وهي أن العلم حين وُهِبَ للإنسان ، ووُهِبَ له من الله عز وجل ، وحين انفرد به واختص دون باقي الخلائق ، إنما جعل العلم أصلاً فيه ، خلق به وعليه ، وهو جزء من تكوينه وماهيته وليس شيئًا منفصلاً عنه ، فالإنسان دون العلم الذي عُلمه ناقص الماهية فاقد لمكون رئيسي من مكوناته .

فما هو البيان الذي عُلِّمه ، بضم العين ، الإنسان .

بان وكل ما يتفرع منها تدور حول معنى واحد ، هو الظهور والوضوح .

«بان الشيء : ظهر واتضح ، وأبان فلان : أفصح عما يريد ، وأبان الشيء : أظهره ووضحه ، وتبين الشيء : تأمله حتى اتضح ، واستبان الشيء : ظهر واتضح أو استوضحه ، والبيان : الحجة والمنطق الفصيح ، والبين : الواضح والطلق الفصيح اللسان»[1] .

فكل ما كانت بان أصلاً له يدور حول الوضوح والظهور والكشف عن حقيقة الشيء ، وما سمي الكلام بيانًا إلا لأن الإنسان يظهر به ما في نفسه ويوضحه .

لذلك : **«البيان هو الكشف عن الشيء»**[2] .

إذًا آيات الرحمن ، وهي تقرر أن الله عز وجل حين خلق الإنسان جعل البيان الذي علمه إياه جزءًا من تكوينه وماهيته وأصلاً في خلقه ، فإنها تقرر أن تطلع الإنسان للكشف عن الأشياء واستجلاء حقيقتها واستيضاحها ومعرفة ما فيها هو جزء من الإنسان وصفة مفطورة فيه مخلوق بها مكونة له .

---

(١) المعجم الوجيز ، ص٧٠ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ، ص٦٩ .

وهذا لا يتنافى مع أن البيان هو المنطق والكلام ، فهو قد عُلِّم البيان الكلام ، ليكون وسيلة تناقل البيان الكشف وما كشف عنه ووراثته وتبادله وتراكمه .

ونستطرد فنقول : إن الطفل حين يولد من رحم أمه ويخرج للوجود يكون أول ما يفعله حين يعي أن يسأل من حوله أن يكشفوا له عن معنى ما يراه وحقيقته : ماهذا ، ماهذه ، لماذا هذا هكذا ، لماذا هذا ليس كذلك ؟

الأسئلة التي ينهال بها الطفل على من حوله وهم يبتسمون له ويضحكون منه ومن سذاجة طفولته الأولى ورغبته في معرفة كل شيء أمامه وما اعتادوه هم وأصبحوا لا يسألون عنه لملازمتهم له ، ولو فطنوا لعلموا أن هذا الطفل الوليد أحكم منهم وأوعى وأجدر بالانتساب لأبيه الأول منهم ، فإنه حين يسأل ويستقصي ما يفعل إلا أن يعيد سيرة أبيه الأول ويطلب ميراثه منه : المعرفة والتطلع والكشف عن الأشياء ، الميراث الذي يولد وهو مفطور على معرفته ومعرفة حقه فيه ونصيبه منه .

ولأن البيان الذي علمه الله عز وجل للإنسان هو العلم بالأشياء والقدرة على كشفها واستجلائها ومعرفة حقيقتها كانت الآيات التالية بعد : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ هي كلها آيات كونية وطبيعية خالصة .

فالله عز وجل يقول للإنسان إنه هو الذي منحه هذا العلم وهذه القدرة على الكشف ، ثم يوجهه إلى الوجهة التي ينبغي له أن يضع فيها هذا العلم وهذه القدرة لاستجلائها وكشفها ومعرفتها :

﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾(الرحمن:٤-١٢)

فهذه كلها ، وهي مظاهر الكون والطبيعة ، متعلقة بـ : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، إذ هي موضوع هذا العلم وهذه القدرة ومحل استخدامها .

فالله عز وجل علم الإنسان ثم هو يرشده إلى الموضع الذي يجب أن يضع فيه علمه ، أو وهو عز وجل يهديه إلى الوجهة والميدان الذي يناسب علمه الذي منح له وخلق به من أجل استبيانها واستخدامه فيها .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:١٣)

كما قلنا ونقول ولا نمل من القول : التفسير الإسلامي القرآني للأشياء تفسير نسيج ، تتشابك خيوطه وتلتقي ، ويأخذ بعضها بأطراف بعض ويلتحم ، وهو ما يمنح التفسير القرآني قوته ونفاذه في العقل والنفس واطمئنانهما إليه ، فلا اضطراب ولا تناقض ولا بعثرة ، ولا تضارب بين الأشياء أو إيقافها في مواقف متقابلة .

وحدات التفسير القرآني كلها محكمة منظمة متجانسة ، في تناسق بديع ، يفضي فيه تفسير كل وحدة إلى الأخرى ويمنحها قوتها في موضعها ، ويمنح التفسير كله قبوله في العقل والنفس ، ومطابقته لصفة الحقيقة وعلامتها فيهما : الوضوح والبساطة والنظام والتناسق .

ولو أردنا شيئًا نشبه المنظومة القرآنية به ، لكان أحد آثارها في العقل والنفس التي أنتجته ، الزخارف الفسيفسائية البديعة الجميلة التي تتكون من وحدات صغيرة تتصل وتتداخل وتتلاقى ، لتكون وحدة واحدة لاحد لروعتها ولا لقدرتها على أسر البصر والنفس داخلها ، والتي انفرد بها الفن الإسلامى كتعبير عن الإحكام والنظام والتناسق والانسجام الذي جاء به القرآن كنص محكم ، وما جاء به من انسجام وإحكام في أحكامه وشرائعه وتنظيمه للحياة ، وما جاء فيه من نظم صوتي واتساق لغوي ، وما جاء به من تفسير مترابط متناسق مفهوم للوجود .

النقلة ، الثورة التي جاء بها القرآن إذًا في تفسير علاقة العلم بالله عز وجل وبالإنسان هي أن العلم هبة من الله عز وجل للإنسان ، والإنسان انفرد بهذا العلم دون الخلق أجمعين واختص به وحده ، وهذا العلم هو فطرة في الإنسان وماهية له ، وهو أصل في خلقه وتكوينه .

بقي خيط واحد نعود به إلى البداية ، هذا الخيط هو الذي يكتمل به النسيج وتتضفر أطرافه ليصبح وحدة واحدة تختفي فيه الخيوط ويحل هو محلها ، ليكون هذا التفسير النسيج هو ما يحكم العقل المسلم في رؤيته للعلم .

هذا الخيط هو : لماذا منح الله عز وجل الإنسان العلم بالكون والطبيعة والخلق ، ولماذا انفرد الإنسان بهذا العلم واختص به وحده دون باقي الخلائق ، ولماذا كانت إحدى نقلات القرآن للبشرية هي تصحيحه لمعنى العلم بالكون والطبيعة ولمفهومه بعد أن صحح أمامها حقيقة الكون ونظام الطبيعة نفسها؟

السبب في ذلك أن الإنسان هو المختص وحده بالتعرف على الكون والمخلوقات ، فالله عز وجل خلق الإنسان لمهمة هي أن يكون خليفة له في الكون والخلق ، وهذه الخلافة تعني تسيير كل شيء في الوجود بأوامر الله عز وجل ومنهجه وحسب ما يريد سبحانه منه ، ولكي يتمكن الإنسان من أداء مهمته وإنجاز الخلافة في الأرض التي خلق من أجلها ، منحه الله عز وجل من القدرات وزوده من الوسائل ما يعينه ويستطيع به أداء مهمته والقيام بها .

فوهبه سبحانه العلم وزوده بوسائله ليتعرف على الكون الذي هو مستخلف فيه : ما هو ، وكيف نظامه ، وما يحكمه من قانون ونظام ، وما هو مخبوء فيه ومركوز من إمكانات لتكون عونًا له في مسيرته ومهمته ، وليعرف المخلوقات التي هو مستخلف عليها ومسؤول عنها : ما هي ، وما العلاقة بينها وبينه ، وكيف تعيش ، وما هي وظائفها وما تفعله في الأرض ، وكيف هي مسخرة له ، وما الذي يمكنه أن يفعله بها ، إذ كيف يُسَيِّر الإنسان كونًا لا يستطيع معرفته ، وكيف يقود مخلوقات ليس عنده علم بها؟

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (يونس:١٠١)

﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

(ق:٦،٧).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ (النور:٤٣).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(الزمر:٢١).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠).

فالله عز وجل زود الإنسان بالعلم ، أولاً لكي يعرف الكون المستخلف فيه والمخلوقات المستخلف عليها حتى يتمكن من إنجاز مهمته : الخلافة العبادة ، وثانيًا : كان هذا العلم من الله عز وجل للإنسان سلطانًا مُنح له ليتمكن من السيطرة على هذه المخلوقات واستخدامها واستغلال تسخيرها له في الانتفاع بها ، وهو تذليل لمهمته وعون له لإنجازها .

فالعلم ممنوح للإنسان لكي يطبقه على ما عرف من الكون والخلائق ويقودها به ويستعين به في مسيرته على الأرض ومهمته فيها .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ

﴿ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل:٥-١٦).

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد:٢٥).

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس:٢٤-٣٢).

ومع معرفة الكون والخلائق ، وقبل تطبيقه لمعرفته عليهم واستغلاله لها في مسيرته ومهمته ، مُنح العلم ووهب له ليعرف نفسه وما أودع الله عز وجل فيه من قدرات ووسائل سيادة وسلطان ووسائل كشف وعلم ، ليستخدمها في مهمته الاستخلافية ، وليطورها ويورثها من جيل إلى جيل في البشرية حتى تتحقق وتكتمل مهمة الخلافة التي وجدت البشرية من أجلها .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق:٥).

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات:٢١)

وقبل أن يعرف الكون والخلق ويعرف نفسه ، مُنح له العلم ليكون مرشدًا له وهاديًا حين ينظر في الكون والخلق ويرى دقة النظام وبديع التناسق والإحكام إلى الخالق ووحدانيته وطلاقة قدرته وكمال صفاته ، ولكي يظل على اتصال بالملأ الأعلى حتى لا ينحرف عن مهمته أو يسيئ فهم المراد منه فيها .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠)

إذًا هذا هو جواب السؤال : منح الله عز وجل الإنسان العلم ، وانفرد به هو دون باقي الخلائق ، لأن العلم هو وسيلته في التعرف على محل مهمته ، وهو قدراته الممنوحة له لإنجازها ، وهو سلطانه في تسخير المخلوقات والانتفاع بها ، وهو طريقه لمعرفة نفسه وما أودع الله عز وجل فيه من وسائل وقدرات لإنجاز مهمته ، وهو النجم الذي يهديه في أثناء مسيرته إلى الخالق ووحدانيته ويذكره دائمًا بمهمته .

ولهذا أيضًا كان حرص القرآن على تصحيح صورة الكون والطبيعة ، وتصحيح مفهوم العلم ومجراه ، وإعادة كل منهما إلى حقيقته وتصحيح نظرة البشرية له ، القرآن بذلك كان يصحح في ذهن البشرية حقيقة الكون والطبيعة محل مهمتها : الخلافة ، ويصحح مفهوم العلم المتصل بهذا الكون والطبيعة ومجراه لأنه وسيلة إنجاز المهمة .

وبدون هذا التصحيح لمحل المهة ووسيلتها وإرشاد القرآن لحقيقتهما ، لظلت مسيرة البشرية متعثرة تتخبط في طريق لن تتقدم فيه خطوة واحدة ، لأنه ليس ميدانها ولا مهمتها ولا ما هي مؤهلة له ، ولا الوسيلة التي كانت تستخدمها في هذا الميدان هي وسيلة الإنجاز والإثمار فيه .

البشرية كانت تضع وسيلة للمعرفة تملكها في غير موضعها ، فجاء القرآن لبيان حقيقة الموضع وتصحيح صورته ، وليرشد الإنسان إلى الوسيلة الصحيحة المناسبة للتعامل معه .

إذًا إحدى نقلات القرآن للبشرية وأحد وجوه تصحيحه لمسيرتها هو بيانه لوسائل المعرفة الإنسانية وتصحيحه وتنظيمه للعلاقة بينها .

* * *